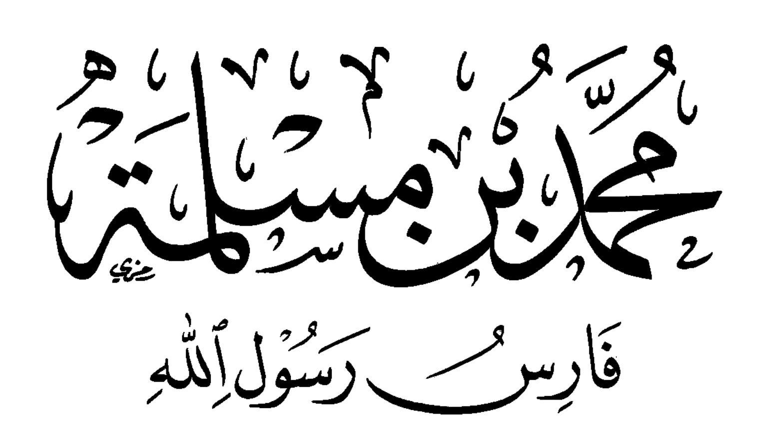
من نجوم الإسلام
(١)



محمد بن مسلمة رضي الله عنه

فارس رسول الله

تأليف
عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم

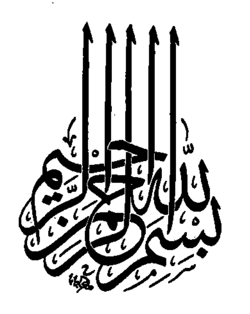
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه

فَارِسُ رَسُولِ اللهِ



المقــدّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

باسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على مصطفاه.. وبعد:

فهذه السلسلة (من نجوم الإسلام) تتحدث عن تلاميذ مدرسة الرسول القائد محمد ﷺ، هذه المدرسة التي تخرج فيها آلاف العظماء، منذ تأسيسها يوم انبثق فجر البعثة النبوية، حتى يوم الناس هذا، وستبقى محضن العظماء إلى يوم الدين، إذ لا يجوز أن يخلو من خرّيجيها زمان.

بدأنا بمن نالوا شرف الصحبة والجهاد تحت لواء الرسول القائد، ثم بمن سار على درب الجهاد، ونَهَجَ نَهْجَ قائد الغُرِّ المحجَّلين، على مدى الأزمان والدهور، من التابعين وتابعيهم، إلى يومنا هذا..

والجامع المشترك لهؤلاء النجوم الذين اخترناهم من بين آلاف النجوم، هو الجهاد بمعناه الواسع، لأننا نحيا أو نعيش ظرفاً دقيقاً فيه من ألوان الإحباط، ما يقعد بالهمم، ويوهن العزائم، إلى درجة التيئيس، والعياذ بالله تعالى..

لهذا.. أردنا ــ بهذه السلسلة من عظماء أمتنا ــ أن نحيي ما توارى فينا من مروءات ونخوات وأريحيّات، تشدُّ الشباب إلى ماضي أمته، ليرفد حاضره، من أجل مستقبل مشرق خالٍ من الأمراض التي انتهت بنا إلى ما نحن فيه من بؤس وتعاسة وضنك..

نريد أن نزوّد الأجيال بزاد الرجولة، ونعيد بناءها العقلي والنفسي، بما حفل به الزاد من قيم العروبة والإسلام.. فنحن نؤكد في سِيَرِ أولئك الأفذاذ على الإيجابيات، ليتمثّلها النشء الذي يرى الترخُّص ولا يرى العزائم، في وقتٍ نحن أحوج ما نكون إلى الأخذ بالعزائم.. وبهذا نكون عوناً للأسرة والمدرسة في تربية أولادنا على مكارم الأخلاق وماجد الأعمال، من خلال الموعظة التي يتلقونها، وهم يطالعون سير الآباء والأجداد، هيِّنةً ليِّنةً، يتعشَّقونها، فتتغلغل في أعماقهم، دون أن يشعروا بوطأتها، لأنَّها تُقدَّم إليهم بهذا الأسلوب الذي مزجْنا به بين الواقع المعيش، والماضي البعيد أو القريب، عبر خيالٍ وحوارٍ وأحلامٍ وطموحات وتطلعات، تشوقه فتشدّه وتحبّبه ليكون مثل من يقرأ سيرته من أولئك العظماء، من المجاهدين والعلماء والشهداء، لعلَّ الروح الذي سرى في هذه الأمة، على أيدي أولئك الرجال، يعود إلى سريانه في دماء جيل الصحوة، فيجعل منهم أمةً مجاهدة، تستطيب الموت في سبيل المجد والخلود تحت لواء الإسلام، وعلى أرض الإسلام، ومن أجلّ عزّ الإسلام وأبناء الإسلام.

والله من وراء القصد.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيّنا وقدوتنا وزعيمنا وقائدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وعلى من اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

عبد الله الطنطاوي

محرم الحرام ١٤١٤هـ

حزيران ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

رأيتُ ـ فيما يرى الحالمُ اليقظان ـ أنني وأختي صادقة أمام رجل أسمر اللون، طويل القامة، ممتلىء الجسم، أصلع شعر الرأس، مهيب الطلعة، تدلُّ قسماتُ وجهه، ونفاذ نظراته، على أنّه شجاع مقدام، لا يخشى أحداً إلاَّ الله.. فتقدمتُ منه وسلّمتُ عليه، فردّ لي التحية بأحسن منها، فشجّعتْني تحيته الجميلة على الكلام معه، ولكنّ أختي صادقة لم تشجّعني على الحديث معه، بل همستْ في أذني:

ـ احذرْ هذا الرجل يا صادق، فإنّه مخيف.

فطمأنْتُها بقولي:

ـ اطمئنّي يا أختي، فإنه يبدو لي رجلاً طيّباً.

ولكنَّ صادقةَ لم تصغ إليّ، ولم ترتحْ لرأيـي في الرجل..

كانت عيناها معلَّقتين في عينيه، فيما كانت يداها تمسكان بـي، وكان لسانها يقول لي:

ـ ألا ترى إلى نظراته الحادّة؟

ألا تخاف من هاتين العينين النفّاذتين اللتين تبرقان وتلمعان؟

فعدتُ أطمئنها بقولي:

ـ وأنتِ يا أختي يا صادقة، ألا تَرَيْنَ نورَ الإيمان يطفحُ به وجهه الكريم؟

ثم اقتربتُ من الرجل الذي كان يرتدي لباساً لا نعرفه، ولا عَهْدَ لنا به إلاَّ في الكتب التي قرأناها عن أجدادنا الأولين، وقلتُ في حذر:

ـ أهلاً بك يا عمّ..

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة وقال:

ـ أهلاً بك يا بنيّ.

فبادرتُه قائلاً:

ـ اسمي صادق أمين، وأنا تلميذ في المرحلة الإعدادية.. في الصف الثالث المتوسط.. وعمري أربعةَ عشرَ عاماً.. من بلاد الشام.

فمدَّ إليّ يده مصافحاً وهو يقول:

ـ مرحباً بك يا بنيّ، فأنت من البلاد التي باركها الله، ودعا لها رسول الله ﷺ، فقال: اللهم باركْ لنا في شامنا..

ثم نظر إليّ نِظْرةَ المتأمّل، وتابع يقول:

ـ وأرجو أن تكون صادقاً في سائر أحوالك يا صادق، فإن الصدق من صفات المؤمنين.

فقلتُ، وقد سُرِّيَ عني:

ـ إنّ أبـي ربّانا على الصدق، وعلَّمنا حديثاً رائعاً عن الصدق والكذب، فهل تحبّ أنْ أُسْمِعَكَ إياه؟

فأجاب بسرعة:

ـ لا بأس.. لا بأس.. هاتِه..

فأسمعتُه الحديث كما أحفظه من كتاب (رياض الصالحين) الذي أحفظ من كل باب من أبوابه الرائعة.. ثلاثة أحاديث اختارها لنا أبـي قلت:

ـ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، عن النبـيّ ﷺ قال:

إنَّ الصـدقَ يهـدي إلـى البِـرّ، وإنَّ البـرَّ يهـدي إلـى الجنـة. وإنّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتى يُكتَبَ عند الله صِدّيقاً، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وإنّ الرجل ليكذِبُ حتى يُكتَبَ عند الله كذّاباً. «متفق عليه».

فهشَّ لي الرجل وبشّ، ثم قال:

ـ ما شاء الله.. أنت تحفظ حديث رسول الله ﷺ؟

فأخبرتُه بما كان من أمر والدي الذي يُعنىٰ بتحفيظنا القرآنَ الكريمَ، والحديثَ الشريفَ، ثم أشرتُ إلى أختي صادقة وأنا أقول له:

ـ وأختي هذه، واسمُها صادقة، تحفظ مثلما أحفظ من القرآنِ الكريمِ ومن الحديثِ النبويِّ الشريف، مع أنها تصغُرُني بسنتين.

فتشجَّعتْ صادقةُ، وقالت في مرح:

ـ يبدو أنّ هذا الحديث لا يخصّنا نحن بناتِ حواء..

فاستنكر الرجلُ كلامَها، وسألها في حدّة:

ـ كيف تقولين هذا يا بنيّتي؟

هذا الحديث يشمل الرجال والنساء معاً.. أم أنّكِ لم تقرئي قولَ الله تعالى:

﴿إنّ المسلمين والمسلماتِ، والمؤمنين والمؤمناتِ، والقانتين والقانتاتِ، والصادقين والصادقاتِ، والصابرين والصابراتِ، والخاشعين والخاشعاتِ، والمتصدّقين والمتصدّقاتِ، والصائمين والصائماتِ، والحافظين فروجَهم والحافظاتِ، والذاكرين اللّهَ كثيراً والذاكراتِ، أعَدَّ اللّهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾؟

كانت أختي صادقة تبتسم وهي تنصت إلى تلاوة هذه الآية الكريمة، وكنت أنا أحسُّ بسعادة غامرة وأنا أستمع إلى الحروف والكلمات التي كانت تخرج من فم هذا الرجل الصالح كالعسل المصفَّى، وعندما وقف الرجل عن التلاوة، تابعت أختي صادقة قراءة الآية التي بعدها:

ـ ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللّهُ ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم. ومن يعصِ اللّهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً مُبيْناً﴾. صدق الله العظيم.

كنتُ ألاحظ الرجل أثناء قراءة صادقة، فرأيت الخشوع في وجهه.. كان يهزُّ رأسَه في إعجاب، وهو يستمع إلى تلاوتها العذبة،

لأنها تجيد التجويد، وتحافظ على أحكامه، وتراعي مخارج الحروف في إتقان أغبِطُها عليه..

ثم نظرتْ صادقةُ إلى الرجل وقالت:

ــ هاتان الآيتان الكريمتان الرائعتان من سورة الأحزاب، وأنا أحفظ سورة الأحزاب جيداً، وأعرف تفسيرها، كما أعرف المناسباتِ التي نزلت الآيات بسببها، وإنْ شئتَ أسمعتُك السورةَ كلَّها، من أوّلها إلى آخرها..

فقال الشيخ المهيب الذي لم نتعرّف إليه بعدُ:

ــ إذن.. كنتِ تمزحين في تعليقكِ على الحديث الشريف يا صادقة؟

فأجابت صادقة، وهي تهزّ رأسها الصغير:

ــ أجلْ يا عمي.. كنتُ أمزح.. أحببتُ أن أمازحك.. لأنني عندما شاهدتُكَ خفتُ منك.. من نظراتك.. فسامحني يا عمي.

فابتسم الرجل الوقور وقال:

ــ أنتِ لم تسيئي إليّ يا ابنتي.. ولكن.. يجب أن نحترم حديث رسول الله ﷺ.. لا يجوز المزاح في هذا المقام يا ابنتي صادقة..

وأردتُ أن أعرف هذا الشيخ الذي دخل إلى قلبي مثل قرص الشهد ــ ومعذرةً لتكراري العسل مرتين، لأني أحبُّ العسل حبّاً جمّاً، لما جعل الله فيه من شفاء ومن متعة لذيذة وفائدة عظيمة، ولأنه من شراب أهل الجنة ــ..

قلت للشيخ على استحياء:

ـ معذرةً يا سيدي، فقد قدّمتُ إليك نفسي واسم أختي...

فقاطعني بقوله:

ـ وتريد أن تعرف من أنا؟.. أليس كذلك؟

فهززتُ رأسي بالإيجاب، فقال:

ـ أنا محمدُ بنُ مَسْلَمَةَ الأوسيُّ الأنصاريّ.. وكُنْيتي: أبو عبد الرحمن..

لم أدر كيف فاضت الدموع من عينيّ وأنا أسمع اسم هذا الرجل، فقد غمرتني هذه الكلمات القليلات بالسعادة، وملأت جوانحي بالسرور، واستجاشت كوامن الذكريات في نفسي، فأقبلتُ عليه وقلت:

ـ أنت، إذن، من أصحاب رسول الله ﷺ؟

فقال:

ـ أجلْ.. أنا صاحبُ رسول الله ﷺ وخادمُه، وحارسُه بأبي هو وأمي.

فتدخلتْ صادقة وقالت:

ـ لقد تعبتُ من الوقوف.. أفلا نجلسُ يا عمي؟

أجاب الشيخ في حنان:

ـ نجلس يا بنتي.. نجلس..

وجلس الصحابيُّ الجليل على كرسيّ، وجلستُ وأختي على كرسيين قُبالتَهُ، ثم زحفتْ صادقة بكرسيّها قليلاً نحو الشيخ وهي تقول:

ــ لا بدَّ أنك وُلدتَ في الإسلام يا عمي، وإلا ما أسمَوْكَ محمداً.

فابتسم الشيخ في سرور وقال:

ــ بل وُلدتُ قبل خمسة وثلاثين عاماً من هجرة رسول الله ﷺ إلى يثرب.

فقالت صادقة:

ــ إذنْ وُلدتَ في مكة المكرمة، وأسماك أبوك محمداً تيمُّناً بمحمدٍ رسول الله ﷺ.

فقال الشيخ، وابتسامة عريضة تملأ وجهه:

ــ بل وُلدتُ في (يثرب) التي صار اسمها (المدينة المنوّرة) بعدما نوّرها النبيُّ الكريم بالهجرة إليها، والإقامة فيها.. وأنا من قبيلة الأوس التي كانت تقطن في يثرب هي وأختها قبيلة الخَزْرَج.

قالت صادقة:

ــ معنى هذا أنّ العرب كانت تسمّي محمداً قبل رسول الله يا سيدي؟

أجاب الصحابيُّ الجليل محمد بن مسلمة:

ــ أجل يا صادقة.. كان العرب يسمّون محمداً في الجاهلية.

فـقـلـتُ:

ـ هذا لم أكن أعرفه قبل الآن يا عمّي.

وقالت صادقة:

ـ ولا أنا.. فشكراً لك يا سيدي على هذه المعلومة اللطيفة.

وقال محمد بن مسلمة:

ـ ولكن.. هل تعرفان السبب في تسمية العرب أبناءها بمحمد قبل ولادة النبيِّ الكريم، وبعد ولادته؟ وقبل بعثته وبعد بعثته؟

وعندما نفينا معرفة ذلك، تابع يقول:

ـ لقد سمّى بعض العرب أبناءهم باسم محمد، لأنّ اليهود في يثرب كانوا يقولون للناس: إنّ نبيّاً سوف يُبْعَثُ من العرب، وإنّ اسمه محمد.

فتابعتْ صادقةُ كلامه في سُهُوم:

ـ فصار العرب يسمُّون أبناءهم بهذا الاسم الجميل: محمد، لعلّه يكون ذلك النبيَّ المنتظَر.

فقال ابن مسلمة:

ـ هذا صحيح.. هذا ما كان بالفعل.

وقالت صادقة:

ـ وهذه معلومة جديدة ما كنتُ أعرفها.

وقلت أنا:

ـ وهذا يعني أنّ أسرتك الكريمة كانت على استعداد للإيمان بالنبـيّ الجديد الذي سيرسله الله إلى الناس.

فقال ابن مسلمة:

ـ ليست أسرتي وحدَها التي كانت مستعدّة للإيمان بالنبـيِّ القادم، بل كلُّ أهل يثرب، من العرب الوثنيين واليهود، كانوا على استعداد للإيمان به.

فاستدركتْ عليه صادقةُ تقول:

ـ ولكنّ اليهود لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

فاستدرك ابنُ مسلمة وتابع كلامَ صادقة قائلاً:

ـ مع أنّهم كانوا يهدّدوننا به.. كانوا يقولون لنا: لقد أظلَّ زمانُ النبـيِّ، وسوف نقاتلكم به.

وقالت صادقة متابعة:

ـ وعندما جاءهم النبـيُّ المنتظَر، كفروا به، وتآمروا عليه، وحاربوه.

فقال محمد بن مسلمة:

ـ الحديث عن يهود ذو شجون يا أولادي، فهم ألدُّ أعداء الإسلام والمسلمين، مُنْذُ اليوم الأول لمجيء نبـيّ الإسلام ﷺ.

وقالت صادقة:

ـ آه من اليهود وأفعالهم.. إنهم مجرمون.. مجرمون بكل معاني الإجرام.

وسكتتْ صادقةُ هنيهةً ثم قالت:

ــ حبّذا لو تحدّثنا عن إسلامك يا سيدي..

فقال ابن مسلمة، والابتسامة العذبة ما تزال في عينيه وفي شفتيه:

ــ سوف أحدّثكم، إن شاء الله، عن كل ما تطلبانه مني، ولكن.. بعد أن تقولا لي: من أنتما؟ من أيّ العصور أنتما؟ وكيف جئتما إلى هنا؟ أو كيف جئتُ أنا إليكما؟

فشرحتُ له حكايتي معه ومع غيرهِ من أجدادنا العظام، وقلت له:

ــ أنا يا سيدي من القرن الهجري الخامسَ عشرَ.

فصرخ الشيخ متعجِّباً:

ــ ماذا؟ من القرن الخامسَ عَشَرَ؟

فأجبتُ:

ــ نعمْ يا سيدي.. نحن من القرن الخامسَ عشرَ، وأنا يطيب لي في كل أصيل، وبعد أن أصلّي صلاة العصر، أن أحلم وأنا شبهُ يقظان.. بين النائم واليقظان تقريباً.. أحلم بأنني أسافر في التاريخ، لألتقيَ عظيماً من عظماء هذه الأمة، أحدّثه وتحدّثه أختي هذه التي تكاد لا تفارقني، لأنها من المهتمّات، مثلي، بسِيَرِ رجالنا العظام، وجدّاتنا العظيمات، في تاريخنا الحافل بالأمجاد..

يبدو أنّ كلماتي هذه كانت كالبلسم للجراح، فقد سُرِّيَ عن الشيخ، وزال عنه استغرابه، فأقبل نحونا يقول:

ـ إذن أنتم أحبّاء رسول الله ﷺ، آمنتم به ولم تَرَوْه... هنيئاً لكم، فإنّ أجر الواحد منكم يَعْدِلُ أجْرَ خمسين منا نحن الصحابة، كما أخبرَ بذلك الصادقُ المصدوقُ عليه الصلاة والسلام.

قالت صادقة:

ـ والآن يا سيدي.. ألا تحدّثنا حديثَ إسلامك؟

أجاب الشيخ:

ـ حبّاً وكرامة يا أحبّاءَ رسول الله.. أنا طَوْعُ طلباتكما..

أسلمتُ على يد الداعية المجاهد الشهيد مصعب بن عمير، عندما بعثه رسولُ الله ﷺ إلى (يثرب) ليدعوَ أهلها إلى الإسلام، ويعلّمهم القرآن.. وكان إسلامي قبل إسلام سعد بن معاذ وإخوانه من الأنصار، وقبل أن يهاجر النبـيُّ الكريم إلى يثرب..

فعلّقتْ صادقة على كلامه هذا بقولها:

ـ إذن.. كنتَ سبّاقاً إلى الإسلام يا سيدي..

وسألتُه أنا:

ـ وبعد هجرة الرسول القائد يا سيدي؟

أجاب الشيخ الجليل محمد بن مسلمة:

ـ لمّا قَدِمَ رسولُ الله مهاجراً، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بيني وبين أمين هذه الأمة: أبـي عبيدة بن الجرّاح. وقد بايعتُ رسولَ الله ﷺ مع خمسة من إخواني، على أنْ لا تأخذَنا في الله لومةُ لائم.

فسألته من جديد:

ـ هل من ذكرى معيّنة لك مع الرسول القائد يا سيدي؟

فأجاب الصحابـيُّ الجليلُ:

ـ هناك ذكرياتٌ لا تَنْفَدُ كانت لي مع رسول الله ﷺ. .

وسرح الشيخ بنظراته كأنه يتابع حدثاً أمامه ثم تابع يقول:

ـ من هذه الذكريات الأثيرة على نفسي، أنني قَدِمْتُ من سفر، وبادرتُ إلى مسجد الرسول الكريم لأراه وأملأ عينيَّ من نور الإيمان الذي يشعُّ من عينيه، فأخذ رسولُ الله ﷺ يدي، فما ترك يدي حتى تركتُ يدَه.

فـهـتـفـتُ:

ـ الله أكبر. . ما أرفعَ ذوقَكَ يا سيدي يا رسول الله.

وقالت الفتاة الذكية صادقة:

ـ نريد المزيد من ذكرياتك مع الرسول القائد يا سيدي. . ذكرياتك الجهادية، فنحن في هذه الأيام، نخوض حرباً مُعْلَنَةً مع أعداء الله، وخاصةً اليهود الذين تآمروا علينا، واحتلّوا أرضنا، وأذلُّوا شعبنا وأمّتنا. .

وما كاد الشيخ محمد بن مسلمة يسمع اسم اليهود حتى اعتدل في جلسته، وكأنه يتأهب لخوض معركة، ثم قال:

ـ سوف أروي لكما حكايتي مع يهود، يا حَفَدَتي الأعزاء. .

حكايتي الأولى كانت مع عدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ المسلمين، وعدوّ نفسه: كعب بن الأشرف، ذلك اليهوديّ الذي أوغل في إيذاء المسلمين، والكيد للإسلام، بثروته وجاهه وشعره، حتى بلغتْ به الوقاحة أن يشبّب ويتغزل بالنساء المسلمات العفيفات الطاهرات، ويهجوَ النبيَّ ﷺ وأصحابه الكرام.

فهتفْنا.. أختي وأنا: أعوذ بالله..

وتابع ابنُ مسلمة حديثه قائلاً:

ــ وعندما قتل المسلمون صناديدَ قريش في غزوة بدر، قال كعبٌ هذا، متحزِّناً عليهم: بطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها.

بل بلغ به الكيدُ والعداءُ لرسول الله وللمسلمين، أن يذهب إلى مكةَ المكرَّمة، ليُلقي على مسامع مشركي قريش، ما نظمه من شعر في رثاء المشركين الذين قُتلوا في غزوة بدر، ليثيرَ أحزانهم على قتلاهم، فينهضوا لمحاربة المسلمين، والثأر منهم.

كان الامتعاض ظاهراً على وجه صادقة، وكانت تعلّق بين الفينة والفينة بقولها: أعوذ بالله.. ما هذا الشيطان اللعين؟!.

وتابع ابن مسلمة حديثه فقال:

ــ والأنكى من هذا وذاك، أن زعيم مكة ــ آنئذ ــ أبا سفيان بن حرب، سأله وهو في مكة: «أناشدك الله ــ يا كعب ــ أدينُنا أحبُّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأيُّنا في رأيك، أقربُ إلى الحق؟ فإننا نطعم الجَزُور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبّت الشَّمال».

فسألتُه:

ـ وبماذا أجابه يا سيدي؟

قال ابن مسلمة:

ـ فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدىٰ منهم سبيلاً.

فهتفتْ صادقة: أعوذ بالله.. هل يبلغ الضلال والحقد بهذا اليهوديّ أن يفضّل الوثنيين على المسلمين، ويفضّل الأوثان على الإسلام؟!.

قال ابن مسلمة:

ـ فأنزل الله على رسوله:

﴿ألمْ ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت، ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله. ومن يلعنِ اللّٰهُ فلن تجدَ له نصيراً﴾.

فسألَتْ صادقة:

ـ ألا تفسّرُ لنا معنى هاتين الآيتين يا سيدي؟

ـ كما تحبين يا صادقة..

الجبت: يعني السحر ـ والطاغوت: كلُّ ما عُبِدَ من دون الله تعالى. والذين أوتوا نصيباً من الكتاب: هم اليهود، ومنهم كعب بن الأشرف. والذين لعنهم الله في هذه الآية هم اليهود، لأنهم فضّلُوا قريشاً مع كفرها بالله، وعبادتها الأصنام، على رسول الله ﷺ، وعلى المؤمنين، وبهذا يكون اليهود قد ناقضوا الحقَّ لأجل الهوى والحقد والضلال، وهم يعلمون.

ـ أعوذ بالله.. ما أحقدَ هؤلاء اليهود، وما أضلَّهم!!.

وقال ابن مسلمة:

ـ ولم يغادر كعبٌ مكةَ المكرّمة حتى ألَّبَ المشركين فيها على قتال رسول الله ﷺ..

وعندما عاد كعبٌ إلى المدينة المنوّرة، أعلن عداوته لرسول الله ولمن آمنوا معه، وصار يحرّض المشركين والمنافقين واليهود على حربهم، حتى ضاق به الرسول وصحبه، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم:

ـ مَنْ لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى اللَّهَ ورسوله.

فقلت: أتحبُّ أن أقتله يا رسول الله؟

قال: نعم.

قلت: فأْذَنْ لي فأقولَ شيئاً.

فقاطعتْه صادقة:

ـ لمْ أفهمْ معنى العبارة الأخيرة: فأْذَنْ لي فأقولَ شيئاً.

ـ لا بأس يا بنتي.. فالمسافة الزمنية قد باعدت ما بينكم وبين لغة العرب.

فقلت:

ـ ولكن القرآن الكريم حفظ لغة العرب، لغة الإسلام وأهله، ونحن نفهم ما تقولون، وإن غابت عنا بعض الكلمات والعبارات.

قال ابن مسلمة وهو يلتفت نحو صادقة:

ـ الحمد لله.. أمّا معنى قولي للنبيّ الكريم، فهو أنّي أطلب منه أن يسمح لي بأن أقول غير ما أعتقد أمام كعب، كأنْ أتظاهر بالعداوة للإسلام ولرسول الإسلام، حتى أخدع كعباً، وأتمكّن منه.

فسألته:

ـ وهل أذن لك الرسول القائد بهذا يا سيدي؟

ـ أجلْ.. أَذِنَ لي بذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: قد فعلتُ. أي قد أذنتُ لك. فقلْ ما بدا لك، فأنتَ في حِلٍّ من أيّ إثم..

فسألته صادقة:

ـ هذا في الحرب.. أليس كذلك يا سيدي؟

ـ بلى.. هذا جائز في الحرب مع العدو على سبيل الخدعة.. والحرب خدعة..

ثمَّ نفّذتُ رغبة رسول الله ﷺ، وقتلت كعب بن الأشرف، وخلّصتُ المسلمين من شروره.

ـ متى تمَّ ذلك يا سيدي؟

ـ في شهر ربيع الأول، من السنة الهجرية الثالثة.

قالت صادقة، بعد أن صعّدت أنفاساً حرّى:

ـ بارك الله فيك يا عمي، وسلمتْ يمينك..

ثم قالت صادقة:

ـ هذه حكايتك الأولى مع اليهود، فهل تحكي لنا حكاية أخرى يا سيدي؟

ـ حكايتي الثانية مع اليهود كانت في السنة الهجرية الرابعة، وذلك عندما أضمر يهود بني النَّضير أن يغدروا بالنبـي الكريم ﷺ، فأرسلوا إليه يقولون:

«اخرُجْ إلينا في ثلاثة من أصحابك، ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإنْ آمنوا بك اتّبعناك».

فسألته صادقة التي كان من طبيعتها الاستعجال في المعرفة، مخافة أن تنسى:

ـ وهل استجاب الرسول القائد لدعوتهم هذه يا سيدي؟

أجاب ابن مسلمة:

ـ الـرسـول العظيـم مـا دُعِـيَ إلـى خيـرٍ ـ قَـطُّ ـ إلاَّ أجـاب الداعي.. ولهذا استجاب لدعوة يهود، مع ما يعلم من لؤمهم وكفرهم وحقدهم، لعلّ الله يهديهم إلى الإسلام، وينقذهم من النار.. كان ـ عليه السلام ـ يريد حياتهم، وكانوا يريدون قتْلَه.. كانوا ينوون الغدر برسول الله.. فقد خبَّأ أحبار يهود الخناجر تحت ثيابهم من أجل الفتك به ـ بأبـي هو وأمّي..

وحاول الشيخ الوقور التقاطَ أنفاسه، ولكنّ صادقة استعجلته الكلام:

ـ وبعدها يا سيدي؟

ـ شاء اللَّهُ أنْ تطّلع امرأةٌ منهم على ما بيّتوا من غدر، فأرسلتْ إلى أخ لها من الأنصار تخبره بما نواه يهود من الغدر برسول الله وصحْبه، فأسرعَ أخوها إلى النبيِّ الكريم، وأخبره بذلك قبل أن يصل النبيُّ الكريم إلى بني النضير، فرجع النبيُّ الكريم إلى المدينة، ثم صبّحهم بالكتائب، فحاصرهم ذلك اليوم، ثم نَدَبَني إليهم، لأبلّغهم أمره لهم بالجلاء عن أرض الحجاز إلى جنوب سورية، على أنْ لا يحملوا معهم شيئاً من أسلحتهم.

فسألت صادقة:

ـ وهل نفّذ اليهود أمر الرسول القائد، ورحلوا عن أرض الحجاز يا سيدي؟

أجاب ابن مسلمة:

ـ طبعاً نفّذوه خلال ثلاثة أيام، وحملوا معهم على إبلهم وخيولهم كلَّ ما استطاعوا حَمْلَه، حتى أبواب بيوتهم خلعوها وحملوها معهم. . كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، فيهدمونها ويحملون ما يوافقهم من خشبها. . فأنزلَ اللَّهُ فيهم قوله في سورة الحشر:

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنُّوا أنّهم مانعتُهم حصونُهم من الله، فأتاهم اللَّهُ مِنْ حيثُ لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يُخْرِبون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

فقلتُ: وهذا جزاء الغادرين.

وقالت صادقة:

ـ هل لك أن تحكي لنا حكاية ثالثة مما جرى بينك وبين اليهود يا سيدي؟

أجاب ابنُ مسلمة:

ـ أجلْ يا ابنتي.. فلي معهم حكايات وتجارب..

فعندما غدر يهودُ بني قُرَيْظَةَ بالمسلمين، ونكثوا العهدَ الذي عاهدوا عليه رسولَ الله ﷺ.. وكان نقضُهم للعهد في غزوة الخندق، في السنة الخامسة من هجرة النبي الكريم إلى المدينة المنوّرة ـ حاصرهم الرسولُ الكريم قبل فجر أحد الأيام.. في البداية ظنّوا أنهم قادرون على حرب رسول الله وصحبه، وعلى هزيمتهم، ثم تبيّنَ لهم أنهم لا يستطيعون أن يصمدوا في وجوه المسلمين، فاستسلموا لحكم رسول الله ﷺ.

فسألت صادقة:

ـ وماذا كان حكمُ الرسول القائد يا سيدي؟

أجاب ابن مسلمة:

ـ حكَّمَ رسولُ الله فيهم واحداً من حلفائهم في الجاهلية.. أعني سعْدَ بنَ معاذٍ رضي الله عنه، فحكمَ فيهم، بأن يُقْتَلَ رجالُهم، وتُسبىٰ نساؤهم وذراريهم، وتؤخذ أموالهم. فقال له رسول الله ﷺ:

لقد حكمْتَ بحكم الله عزّ وجلّ من فوق سبعة أرقعة.

ونفَّذَ الرسول العظيم الحكم فيهم.

فهتفْنا: الله أكبر.. الله أكبر..

ثم سألتُ ابنَ مسلمة:

ــ ما معنى سبعة أرقعة يا سيدي؟

ــ يعني من فوق سبع سماوات.. الأرقعة هي السماوات، ومفردها: رَقِيْع.

قالت صادقة:

ــ وما دورُك في تلك الغزوة يا سيدي؟

فأجاب محمدُ بنُ مسلمة:

ــ كنتُ أحدَ فرسان المسلمين، وقائدَ حَرَس رسول الله ﷺ.. وإني أحمدُ اللَّهَ الذي وفَّقني للقيام بهذه المَهَمَّةِ علَى خير وجهٍ يرضي اللَّهَ ورسولَه والمؤمنين..

فسألتُ ابنَ مسلمة عمّا إذا كانت له ذكرى معيّنة في تلك الغزوة، فأجاب:

ــ فيما كنت أتفقَّدُ الحرس، شاهدتُ رجلاً يمرُّ بالقرب منا، فصرختُ فيه:

ــ من أنت؟

فأجاب الرجل، وقد توقّفَ عن المسير:

ــ أنا عَمْرُو بنُ سُعْدى.

وعمرٌو هذا كان من يهود، غير أنه أبى أن ينقض العهد كما فعلَ يهودُ بني قريظة، بل إنه غضب من قومه، وحذَّرهم من نقض العهد، ولكنهم لم يسمعوا لتحذيره..

عرفتُ الرجلَ، فسمحتُ له بالمرور، ثم ابتهلتُ إلى الله بقولي: اللّهم لا تحرمني من إقالة عثرات الكرام.

ـ وماذا كان يريد عمرٌو يا سيدي؟

ـ لا أدري.. إلاَّ أنه ذهب في طريقه، حتى أتى مسجدَ رسول الله فبات فيه حتى أصبح، ثم غادره إلى جهة مجهولة، ولم يدر أحدٌ أين هو حتى هذه الساعة.

فسألت صادقة:

ـ وهل حكيتَ هذا للرسول القائد يا سيدي؟

ـ وهل يجوز أن نخفي عن سيدنا وقائدنا أمراً يا ابنتي؟ طبعاً قصصتُ عليه قصة ابن سُعدى.

ـ وماذا كان جواب الرسول القائد يا سيدي؟

ـ قال الرسول ﷺ: ذلك رجلٌ نجّاه اللَّهُ بوفائه.

وقلتُ أنا، وقد أصابتني غيرةٌ من أختي التي لا تكفُّ عن السؤال:

ـ ثم ماذا يا سيدي؟

فتابعَ ابنُ مسلمة حديثَه قائلاً:

ـ بعد أن نزل اليهود على حكم النبـيّ الكريم، أمر بتكتيف أسراهم، وجعلني على كتافهم. .

تقدّمتْ صادقةُ من الصحابـيّ الجليل الذي كان يحنو حُنُوَّ أبٍ رحيم وسألته في رجاء:

ـ هل من حكاية أخيرة لك مع اليهود يا سيدي؟

أجاب الشيخ الوقور:

ـ أجل يا ابنتي يا صادقة. . فقد شهدتُ حربَ المسلمين ليهود في غزوة خيبر.

ـ عفواً يا سيدي. . في أيِّ سنة كانت غزوة خيبر؟

ـ في السنة السابعة. . وقد قاتلتُ اليهودَ يومها قتالاً رجوتُ فيه إرضاء ربـي وقائدي وديني وضميزي.

قلت: نريد شيئاً من التفصيل.

فـقـال:

ـ لا بأس. .

فـي غـزوة خيبـر دعـانـي رسـول الله ﷺ، وأمـرنـي بـأن أختـار للمسلمين مكاناً يكون بعيداً من حصون يهود، وخالياً من الوباء، ويكون مكاناً أميناً لا يمكّن اليهود من الغدر بالمسلمين. فطفتُ في المنطقة، ثم اخترت «الرجيع» مكاناً آمناً وفيه المواصفات التي يريدها النبـيُّ الكريم، ثم عدتُ إلى النبـيِّ وأخبرتُه باختياري، فقال عليه الصلاة والسلام: على بركة الله. فلما أمسىٰ تحوّلَ هو والمسلمون إليه.

ـ بارك الله فيك يا سيدي، وهنيئاً لك على هذه الثقة التي وضعها الرسول القائد فيك.

ـ ثم ماذا يا سيدي؟

قال ابن مسلمة:

ـ في غزوة خيبر استُشهد أخي محمود بن مسلمة، وحين استسلم أحدُ حصون يهود عَنْوَةً، دفع الرسول الكريم كِنانةَ بنَ الربيع بن أبي الحُقَيْق إليّ، فقتلتُه بأخي الشهيد محمود.

ـ ثم ماذا يا سيدي عن دورك في هذه الغزوة؟

ـ في هذه الغزوة، برز من صفوف يهود بطلُهم أُسَير، وكان رجلاً قوياً، وراح ينادي طالباً من يبارزه، فخرجتُ إليه، وبارزتُه وقتلتُه بفضل الله وعونه.

فهتفت صادقة:

ـ سلمتْ يمينك يا سيدي.. ثم ماذا أرجوك؟

ـ كان يهود يرمون المسلمين من حصونهم المنيعة بالسهام، ويحاولون توجيه سهامهم نحو رسول الله ﷺ، يريدون قتْلَه ـ بأبي هو وأمي ـ فكنتُ فيمن تترّسَ دون النبيّ الكريم، وكنتُ أصيح بالمسلمين أن يرموا إلينا بتروسهم، لأنّ يهود كانوا يرمون رسول الله بوابلٍ من سهامهم، حتى ظننتُ أن ذلك الوابل من السهام لن يقطع، وأنّ يهود لن يكفّوا عن الرمي.. وقد شاهدتُ النبيَّ الكريم يرمي بسهم، وعندما رآني أنظر إليه، تبسَّمَ إليّ، عليه أفضل الصلاة والسلام.

هتفتُ أنا وأختي صادقة بصوت متهدّج من شدّة الانفعال:

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

ـ ما أروعكم يا أصحاب رسول الله.

ولمحتُ أختي صادقة تمسح دمعاتها وتقول:

ـ لقد تذكّرتُ الآن.. فقد قرأتُ أن أصحاب النبيِّ الكريم أطلقوا عليك في هذه الغزوة، لقب: فارس رسول الله ﷺ.

فغضَّ الصحابيُّ الجليل مِنْ طَرْفه حياءً فهتفتُ:

ـ هنيئاً لك يا سيدي بهذا اللقب الوسام.

وقالت صادقة، تطلب المزيد من حياة هذا الصحابي الفارس المجاهد:

ـ ثم ماذا عن حديث الجهاد يا سيدي؟

فقال ابن مسلمة:

ـ والله إني لأستحيي من ربّي ثم منكم وأنا أتحدّث عمّا قدّمتُ لهذا الدين.. ولكن.. يبدو أنني لن أستطيع أن أردَّ لكما طلباً..

لقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ المشاهدَ كلَّها.. قاتلتُ تحت لوائه في غزوة بدر، وفي غزوة أحد والخندق، وفي سائر الغزوات والمعارك التي خاضها النبيُّ الكريم، إلاَّ غزوةَ تَبُوك، فقد استخلفني رسول الله ﷺ على المدينة المنوَّرة، كما أبقى عليَّ بنَ أبي طالب في أهله.. وكنتُ أميراً على خيل المسلمين في عُمْرَةِ القضاء، كما كنتُ قائد غزوة القرطاء من هوازن.

ولمَّا رأيتُ الصحابيَّ المجاهد قد سكتَ، قلت له:

ــ من هذا نعلم أنّ حياتك، يا سيدي، كانت جهاداً متواصلاً، كلّما احتاج الإسلام إلى جهود رجاله وعقولهم وجوارحهم وأخلاقهم.. فإذا استخلفك الرسولُ القائد على المدينة المنوّرة في غزوة تبوك، ولم يصحبك معه لتباشر القتال مع أندادك من الأبطال، فإنك قد جاهدتَ بمالك في هذه الغزوة، وكنتَ ممّن أسهموا في تجهيز جيش العسرة.. أليس كذلك يا سيدي؟

ولكنّ ابن مسلمة لم يردّ عليّ حياء، فسألته، لأخرجه من الحرج الذي وضعْتُه فيه، ولأعرف المزيد عن هذه الغزوة:

ــ متى كانت غزوة تبوك يا سيدي؟

ــ في السنة التاسعة.

ــ وكم كان عدد جيش المسلمين في هذه الغزوة؟

ــ كانوا ثلاثين ألف مقاتل، وكان معهم عشرة آلاف فرس.

وسألتْ صادقة:

ــ وسبب هذه الغزوة يا عمي؟

قال ابن مسلمة:

ــ كانت غزوة تبوك تنفيذاً لأمر الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يَلُونكم من الكفّار﴾..

ولهذا عزمَ رسولُ الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه.. هذه واحدة، والثانية: لأنَّ الروم أولى الناس بالدعوة إلى

الحق، لقربهم إلى الإسلام وأهله، فالنبـيُّ الكريم رسولٌ يدعو إلى الله على بصيرة، لإنقاذ الناس من الضلال والنار، إلى نور الهداية ونعيم الجنة.

وقالت أختي صادقة:

ـ إذا نَفِدتْ ذكرياتُكَ يا سيدي عن اليهود. . .

فقاطعها ابنُ مسلمة بقوله:

ـ لا يا ابنتي. . لم تَنْفَدْ ذكرياتي عن يهود، فهي كثيرة، وآخر ما أذكره لكم منها، مشاركتي في غزوة بني قَيْنُقاع من يهود، وقد قاتلتُهم فيها قتالاً مريراً، فكرَّمني النبـيُّ الكريم عليه السلام، ووهبَ لي درعاً من دروعهم، كما كلّفني عليه السلام بإجلائهم، وقبض أموالهم.

ـ ما شاء الله. . ما شاء الله. .

قالت صادقة:

ـ ماذا كان دورُك في غزوة أُحُد يا سيدي؟

فأجاب ابن مسلمة، وسحابةٌ من الحزن تغشّي وجهه اللطيف:

ـ كنتُ على رأس حرس النبـيّ ﷺ. . كنت أطوف حول المعسكر وداخله، ومعي خمسون من الصحابة الكرام. . بل كنّا خمسين حَرَسِيًّا، وكنتُ فيمن ثَبَتَ مع رسول الله حين ولّى الناس. . فقد ثبتُّ وصبرت على قسوة المعركة مع نفرٍ من الصحابة الأبطال كانوا أربعة عشر مجاهداً، سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار،

وقد سمعتْ أذناي، وأبصرت عيناي رسولَ الله ﷺ يقول يومئذ: إليَّ يا فلان!.. إليَّ يا فلان!.. أنا رسول الله!.. فما عرَّجَ منهما أحدٌ عليه ومضيا.. لقد كان الموقف عصيباً وخطراً جداً يا أبنائي..

ـ يا لطيف..

وتابع الشيخ الجليل حديثه عن غزوة أحد:

ـ وبعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ليلاً بعد المعركة، خرجتُ أطلب مع النساء ماءً، وكُنَّ قد جئْنَ أربعَ عَشْرةَ امرأةً، وكانت من بينهنّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ، جئنَ يحملْنَ الطعام والشراب على ظهورهنّ، ويسقين الجرحى ويداوينهم.. رضي الله عنهم وعنهنّ جميعاً..

فقلتُ معقِّباً:

ـ ورضي الله عنك يا عمّاه.. فأنت لم تكتفِ بالقتال طوال ذلك اليوم، ولم تبالِ بالجراح التي أصابتْك، فأسرعتَ تشارك في الأمور الإدارية، تخدم إخوانك المجاهدين، وتساعد نساء المسلمين في جلب الطعام والشراب.

فاستلم ابنُ مسلمةَ الحديثَ مني وقال:

ـ ذهبتُ إلى قناة، فأتيتُ بماء عَذْبٍ قدّمته للنبـيّ الكريم الذي اشتدَّ به العطش، فلمّا شرب منه دعا لي بخير، فأزالَ سرورُه ودعاؤه لي كلَّ ما لَحِقَ بـي من أوصاب المعركة.

فقالت صادقة في تأثُّرٍ عظيم:

ــ مـا أعظمكـم يـا أصحـاب رسـول الله، ويـا نسـاء المسلمـين الخالدات. .

وقلت أنا العبدَ الفقيرَ القليل:

ــ وماذا أيضاً عن مشاركاتك في الجهاد تحت لواء الرسول القائد يا سيدي؟

قال ابن مسلمة رضي الله عنه وأرضاه:

ــ كنتُ في غزوة الخندق واحداً ممن يحرسون رسول الله ﷺ كما ذكرت لكم. .

فقالت صادقة مقاطعة:

ــ إذن. . أنت يا سيدي دائماً من حرس رسول الله؟. في كلّ مرة تكون فيها مع الرسول القائد تكون من حرسه. .

ــ الحمد لله. . هذا شرفٌ عظيم أعتزّ به. .

ــ وهذا دليل على الثقة العظيمة التي أَوْلاكَها الرسولُ القائدُ يا سيّدي.

ــ الحمد لله على هذا الشرف، وعلى هذه الثقة من سيدي وقائدي محمد عليه السلام.

فـقـلـت:

ــ نعـمْ يـا عمّـي. . نحــن مُصْغُـون لحـديثـك الـذي يـرفـع المعنويات، في هذه الأيام العوابس التي تهبط بمعنويات المسلمين إلى الحضيض. .

فقال ابن مسلمة:

ـ لا يا بنيّ.. ثقوا بالله وانصروه ينصرْكم على عدوّكم، ويثبِّتْ أقدامَكم..

نعود إلى غزوة الخندق..

وفيما كنّا نحرس رسول الله ﷺ، إذ أقبلَ خالدُ بن الوليد في مئة فارس من المشركين، حتى وقفوا قُبالةَ قبّة النبيِّ ﷺ، فأنذرتُ الحرس ليكونوا في أعلى درجات اليقظة والاحتراس والتنبّه.. ثم تقدَّمَ خالد في ثلاثة نفر هو رابعهم، وقال لهم: «هذه قُبّة محمد.. ارموا.. ارموا..» فقاومتهُم أنا ومن كان معي من المسلمين على شفير الخندق، وخالدٌ ومن معه في شفير الخندق من الجانب الآخر، حتى رددناهم دون أن ينالوا منّا ومن رسول الله شيئاً..

وصعَّد ابن مسلمة نَفَساً محترقاً وقال: لقد صدق من قال: كان ليلُنا بالخندق نهاراً حتى فرَّجه الله. فقد كنّا نسهر الليلَ كلَّه، خوفاً من مباغتة المشركين لنا، وحرصاً على سلامة رسول الله ﷺ وسلامة المسلمين.

فلم أملك نفسي، وأنا أستمع إلى هذا البطل العظيم، أن قلت:

ـ هيه يا سيدي يا أبا عبد الرحمن، فقد شوّقْتَنا إلى الجنة..

فقال ابن مسلمة والبشرُ طافحٌ به وجهُه الكريم:

ـ وفي غزوة الحُدَيْبِيَة كنتُ أحد فرسان الطليعة التي قدَّمها رسولُ الله ﷺ بقيادة عبّاد بن بشر، وكانت مؤلفة من عشرين فارساً..

وكان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتناوب في الحراسة، وكنتُ أحد الثلاثة الذين يتناوبون في حراسة النبيِّ الكريم عليه السلام..

وأشرق وجه ابن مسلمة وهو يقول:

ـ كنتُ، ذاتَ ليلة، على فرس رسول الله ﷺ، وكان عثمان بن عفان ما يزال في مكة، وكانت قريش بعثتْ، في تلك الليلة، خمسين فارساً، وأمروهم أن يطيفوا بالنبيّ وأصحابه، لعلّهم يختطفون واحداً منهم، إن لم يجدوا منهم غرّة أو غفلة يهتبلونها ويوقعون بالمسلمين ونبيِّهم، ولكنني ومن معي من المسلمين تمكّنّا من أسرهم، وأخذناهم إلى النبيِّ الكريم ﷺ..

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

ـ وعندما عُقِدَ صُلْحُ الحديبية بين المسلمين وقريش، كنتُ أحد الشهود على عَقْد الصُّلْح مع أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفّان وأبي عبيدة بن الجراح وسواهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

ويبدو أنّ صاحب الرسول القائد قد سَعِد بسعادتنا، وأخذتْه الأريحيةُ بتسامي معنوياتنا، فتابع يقول، ونحن نصغي إليه بكل ما أوتينا من قوة الإصغاء:

ـ وأمّرني رسولُ الله ﷺ على سريّةٍ مؤلفة من ثلاثين فارساً، ووجَّهَنا إلى (القُرَطاء) وأمرنا أنْ نشُنَّ عليهم الغارة، فتوجَّهْنا إليهم..

وكنّا نسير في الليل، ونكمُنُ في النهار، حتى باغتناهم وأغرْنا عليهم، فقتَلْنا منهم نفَراً، وهرب سائرُهم، فاسْتَقْنا الإبل والأغنام إلى المدينة المنوّرة، وفرح رسولُ الله بما حقَّقْنا من نصر والحمد الله.

وسألتُ الصحابيَّ الجليلَ ابنَ مسلمة:

ـ هل من ذكرى محبّبة لك مع رسول الله ﷺ؟

فأجاب، وسحابةٌ من البشر المشوب بالحزن تغطي وجهه النبيل، وتظهر في عينيه:

ـ كلُّ ذكرياتي مع سيدي رسول الله ﷺ حبيبةٌ إلى نفسي، ولكنّي أريد أن أذكر لكما وصية رسول الله لي، عندما أعطاني سيفاً من سيوفه.. لقد قال لي:

«يا محمدُ بنَ مَسْلَمَة. جاهدْ بهذا السيف في سبيل الله، حتى إذا رأيتَ من المسلمين فئتين تقتتلان، فاضرِبْ به الحجَر حتى تكسرَه، ثمّ كُفَّ لسَانَك ويدَكَ حتى تأتيَكَ منيّةٌ قاضية، أو يدٌ خاطئة».

وزَفَرَ محمد بن مسلمة زفراتٍ حرّى، ثم تابع يقول:

ـ وقد عملتُ بوصية رسول الله ﷺ، فلما استُشهد أميرُ المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه على أيدي المارقين أصحاب الفتنة، من أتباع اليهوديِّ: عبدِ الله بنِ سَبَأ، لعنه الله، وكان من أمر الناس ما كان، خرجتُ إلى صخرة في فِناء منزلي، فجعلتُ أضرب الصخرةَ بسيفي، حتى كَسَرْتُه، ولم أشأ أن أدخل في الفتنة أبداً، ولم تضرَّني تلك الفتنة، كما صرَّح بذلك سيدي رسولُ الله، وسمع ذلك منه أمينُ سرّه: حُذَيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنه وأرضاه.

كسرتُ سيفي، واتخذتُ لنفسي سيفاً من خشب، وسكنت في الرَّبَذة، بعيداً عن الفتنة وأصحابها، والحمد لله.

ثم تقدّمتْ أختي صادقة تسألُ الرجلَ الصالحَ ابنَ مسلمة:

ــ وماذا عن ذكرياتك الأخرى مع الصحابة الكرام يا جدّي؟

فأجابها الصحابـي الجليل قائلاً:

ــ لقد مدَّ اللَّهُ في عمري، فكانت حياتي مديدةً حافلة.. سبعاً وسبعين سنة مليئة بالذكريات الحُلْوة والمُرَّة.. وسوف أذكر لكما بعض ذكرياتي مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأنَّ عمر كان نمطاً عجيباً من الرجال.

فتهلَّلَ وجه أختي ببشرٍ طفوليٍّ بريءٍ وقالت له:

ــ هاتِ يا سيدي هات.. هاتِ حديثَك مع أعظم حاكم.. مع أعدل حاكم عرفه التاريخ..

فاعتدلَ الصحابـيُّ الجليلُ في جلسته، وظهر الاهتمامُ على وجهه، ثم قال:

ــ توجّهتُ ــ ذاتَ يوم ــ إلى مسجد الرسول من أجل الصلاة، فرأيت رجلاً من قريشٍ عليه حُلّة، فقلتُ له: من كساك هذه؟

قال: أمير المؤمنين.

ثم سرتُ في طريقي فرأيت رجلاً آخَرَ من قريش عليه حُلّة، فقلت: من كساك هذه؟

قال: أمير المؤمنين.

ثم دخلتُ المسجدَ ورفعتُ صوتي بالتكبير: الله أكبر.. صدقَ اللَّهُ ورسولُه.. اللَّهُ أكبر.. صدقَ اللَّهُ ورسولُه..

فسمع عمرُ صوتي، فبعث إليَّ لأذهبَ إليه، فقلت لرسوله: حتى أصلّي ركعتين.. ولكنّ الرجل أصرّ على أن أصحبه فوراً إلى عمر، وأصررتُ أنا على صلاة ركعتين قبل أنْ أجيبَ دعوته، ثم دخلتُ في الصلاة، فجاء عمرُ وقعدَ إلى جنبـي، فلمّا قضيتُ صلاتي قال عمر:

ـ أخبرْني عن رَفْعِكَ صوتَك في مصلّى رسول الله ﷺ بالتكبير، وقولك: صدق اللَّهُ ورسولُه.. ما هذا؟

فصاحت صادقة:

ـ وبماذا أجبتَ أمير المؤمنين يا جدّي؟

فقال ابن مسلمة:

قلت لعمر: يا أمير المؤمنين.. أقبلتُ أريد المسجد، فاستقبلني فلان بن فلان القرشيُّ عليه حلة، فسألته: من كساك هذه؟ قال: أمير المؤمنين. ثم جاوزته فاستقبلني فلان بن فلان القرشيُّ عليه حلة، فسألته: من كساك هذه؟ قال: أمير المؤمنين. فجاوزته، فاستقبلني فلان بن فلان الأنصاريُّ، عليه حلة دون الحلتين، فسألته: من كساك هذه؟ قال: أمير المؤمنين.

ثم قلت لعمر:

إنَّ رسول الله ﷺ قال: أَمَا إنَّكم ستَرَوْنَ بعدي أَثَرةً، وإنّي لم أحبَّ أن تكون على يديك يا أمير المؤمنين.

فلم أتمالك نفسي من الهتاف والسؤال.. قلت للصحابي الجليل محمد بن مسلمة:

ـ ثم.. ثم ماذا يا سيدي أرجوك؟ ماذا كان موقف أمير المؤمنين منك؟

قال ابن مسلمة:

ـ فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال: أستغفر الله ولا أعود..

فما رُئِيَ عمرُ بعد ذلك اليوم، فضَّلَ رجلاً من قريش على رجل من الأنصار.

فهتَفَتْ صادقة:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.. ما أعظمك يا سيدي يا أمير المؤمنين!!..

وهتفتُ أنا:

ـ وما أعظمك وما أروعَ صراحتَكَ وصَدْعَك بالحقِّ يا سيدي محمدُ بنَ مسلمة!!.. ثم ماذا عندك من هذه الدُّرَرِ يا سيدي؟

قال ابن مسلمة:

ـ من تلك الذكريات مع أمير المؤمنين عمر، أنه جاء مرة إلى مجلس كنت فيه، فقال لي عمر: كيف تراني يا محمد بن مسلمة؟

قلت: أراك، والله، كما أحبُّ، وكما يحبُّ مَنْ يحبُّ لكَ الخير.. أراك قويّاً على جمع المال، عفيفاً عنه، عَدْلاً في قَسْمه.. ولو مِلْتَ عدَّلْنَاك كما يُعدَّلُ السَّهْمُ في الثِّقاب.

فهتفت:

ــ الله أكبر.. ما هذه الجرأة على أمير المؤمنين يا سيدي؟..

وسألت صادقة:

ــ وهل سكت عنك عمر يا سيدي؟.

أجاب ابن مسلمة:

ــ فقال عمر رضي الله عنه متعجباً: هاه!.. لو مِلْتَ عدّلْناك كما يُعَدَّلُ السَّهْمُ في الثِّقاب!..

وسكت عمر قليلاً ثم قال: الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا مِلْتُ عدَّلوني.

فصرخت:

ــ هنيئاً لكم يا سيدي، فقد ربّاكم الإسلامُ فأحسنَ تربيتَكم، فكنتم خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناس..

وقالت صادقة:

ــ ثم ماذا يا سيدي؟ ماذا عندك من هذه الجواهر التي تَصْقُلُ النفوسَ وتربّيها على الصدق، وقولِ الحق، والجَهْرِ بما في النفس؟ زِدْنا زادَكَ اللَّهُ من فضله يا سيدي..

فقال ابن مسلمة:

ـ اسمعوا هذه الحكاية التي رجوت الله سبحانه أن يغفر لي تقصيري فيها.. بينما كان أمير المؤمنين عمر يَقِيْلُ في ظلٍّ شجرةٍ وقت الظهيرة، وإذا أعرابيةٌ تأتي فتقفُ، وتتطلَّعُ إلى عمرَ ومَنْ كان معه من الصحابة.. تَفَرَّسَتْ في وجوههم، ثم قالت لعمر، وهي لا تعرفه، لأنه كان لا يتميز من سائر أصحابه بلباسٍ أو غيره.. قالت لأمير المؤمنين عمر:

ـ إني امرأة مسكينة، ولي بنون. وإنّ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب كان بعث محمدَ بنَ مسلمة ساعياً فلم يُعْطِنا، فلعلَّكَ، يرحمُكَ اللَّهُ، أن تَشْفَعَ لنا إليه.

فانبرت صادقة تقول:

ـ لا بدّ أن أمير المؤمنين ثار.. أليس كذلك يا سيدي؟

فقال ابن مسلمة:

ـ وأيّ ثورة.. لقد صاح بمولاه (يَرْفأ)، وأمره أن يدعوني إليه..

فقالت له المرأة الأعرابية وهي لم تعرفه بعدُ: إنّه أنجحُ لحاجتي أن تقومَ معي إليه.

فقال لها عمر: إنه سيفعل إن شاء الله.

فجاءني (يرفأ) وقال لي: أجبْ أميرَ المؤمنين. فذهبتُ إليه وقلت:

ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين. .

فاستحيت المرأة منه لأنها كانت تكلمه ولا تعرف أنه أمير المؤمنين.

فقال عمر:

ـ والله ما آلو (أي لا أقصّر) أنْ أختارَ خِيَارَكم. .

ثم التفتَ إليَّ وقال:

ـ كيف أنت قائل إذا سألك اللَّهُ تعالى عن هذه؟

فسألت صادقة:

ـ فماذا أجبتَ يا سيدي؟

قال ابن مسلمة:

ـ فدمعت عيناي، فقال عمر:

ـ إنّ الله بعث إلينا نبيَّه ﷺ فصدَّقْناه واتبعْناه، فعمل بما أمرَه اللَّهُ به، فجعلَ الصَّدَقَة لأهلها من المساكينِ حتى قَبَضَه اللَّهُ على ذلك، ثم استخلفَ اللَّهُ أبا بكر، فعملَ بسُنَّتِه حتى قَبَضَه اللَّهُ، ثم استخلفني فلم آلُ أنْ أختارَ خِيارَكم. .

ثم وجَّه عمرُ كلامَه إليّ فقال:

ـ إنْ بعثتُك فأدِّ إليها صدقةَ العامِ وعامِ أوّل. . وما أدري، لعلّي لا أبعثُك. .

ثم دعا لها بجمل فأعطاها دقيقاً وزيتاً وقال:

ـ خذي هذا حتى تلحقينا بخيبر، فإنّا نريدُها.

فأتتْه المرأةُ البدويةُ بخيبر، فأعطاها جملين آخرين وقال لها:

ـ خذي هذا، فإنَّ فيه بلاغاً حتى يأتيكم محمد بن مسلمة، فقد أمرْتُه أن يعطيَكِ حقَّك للعام وعامٍ أول.

قلت في نفسي:

ـ لقد كان محمد بن مسلمة اليد اليمنى لأمير المؤمنين عمر، يرسله في حلّ المشكلات المعقّدة، وفي كشف الأمور المُعْضلة، والإشراف على الولاة والأمراء ومحاسبتهم، فيؤدّي ابن مسلمة ما يكلَّف به من مهمات بأمانة وبصيرة وإتقان.. ثم سألته:

ـ هل نطمع في المزيد من هذه الذكريات الرائعة مع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه؟

قال ابن مسلمة:

ـ في جَعْبتي الكثيرُ من هذه الذكريات.. وإليكم بعضَ ما تحتفظُ به الذاكرةُ ولا تنساه..

لا بدّ أنكم تعرفون الكثير عن القائد العظيم سعدِ بنِ أبي وقاص، خالِ رسولِ الله، وأحدِ العشرةِ المبشَّرين بالجنة، وفاتحِ العراق وفارس..

قلت:

ـ نعم يا سيدي.. نعرف الكثير عن القائد سعد رضي الله عنه..

قال ابن مسلمة:

ـ لقد نَمَّ النمّامون على سعد بن أبـي وقاص، وشَكَوْه إلى عمر، وزعموا أنه بنى قصراً له في الكوفة، وجعل بينه وبين الرعيّة باباً يُغْلَقُ.. فلم يَسْكُتْ عمر، ولم يَشْفَعْ لسعدٍ كَوْنُه مجاهداً وفاتحاً وأميراً صالحاً، وخالاً لرسول الله، وصاحبَ الدعوة المستجابة التي ليس بينها وبين الله حجاب، لأن عمر لا يكتفي بماضي الرجل، فليس لأحد عصمة إلاَّ الأنبياء، فأرسل عمر إليَّ وقال:

ـ يا محمد بن مسلمة، عليك بسعد بن أبـي وقاص، فقد زعم الناس أنه صار نَمْروداً في أرض بابل.. اذهبْ إلى الكوفة، واكشِفْ لي عن القصر الذي بناه أميرُ العراقَين وفاتحُهما، وإذا رأيتَ للقصر باباً فأَضْرِمْ فيه النارَ، حتى لا يبقى بين سعدٍ والرعيةِ باب، ثم ارجِعْ إليّ مِنْ حيثُ ذَهَبْتَ.

فـسـألـت:

ـ وماذا وجدت من هذه المزاعم يا سيدي؟

قال ابن مسلمة:

ـ ألم أقل لكم: إنهم نمّامون وكذّابون؟..

لقد وقفتُ أمام ما سمَّوْه قصراً لسعد، فرأيتُ داراً متواضعة بناها لِتَحُوْلَ بينه وبين ضجيج الأسواق المجاورة، وكانت الغَوْغاء تمنع سعداً قبل ذلك، من أن يسمعَ حديثَ أصحاب الحاجات الذين يقصدون الأمير بحاجاتهم. فلمّا بنىٰ سعدٌ هذه الدارَ المتواضعة،

افترى عليه المفترون، وسمَّوْها قصراً. . إلاَّ أنه كان لهذه الدار باب، وقد أمرني الخليفةُ بإحراقه، فجمعتُ حطباً، وأضرمْتُ به النار.

فصاحت صادقة:

ـ وسعد؟ أين كان سعد بن أبي وقاص؟

قال ابن مسلمة رضي الله عنه:

ـ وماذا يفعل سعدٌ بأمر الخليفة؟

جاء سعد، ودعاني إلى بيته، والنزول عنده، لأنه كان صديقاً قديماً لي، جاهدْنا معاً تحت لواء رسول الله ﷺ، ولكنني أَبَيْتُ أن أدخُلَ بيتَه، فَعَرَضَ عليّ الزادَ لسفري، فرفضْتُ زادَه، وعُدْتُ من فوري إلى عمر. . .

وسكت ابن مسلمة، ثم صعَّدَ بعضَ الآهات والحسرات، ثم تابع يقول:

ـ وقبل أن أصل إلى المدينة، نفِدَ زادي، فصِرْتُ آكلُ من نبات الأرض، إلى أن بَلَغْتُ عمرَ، فأخبرْتُه بما كان.

فسألت صادقة:

ـ وبماذا علّق أمير المؤمنين على رحلتك الشاقة هذه يا سيدي؟

فأجاب الشيخ الجليل:

ـ قال عمر:

ـ إنَّ سعداً أصدق مما رُوِيَ عليه، وما بلغني عنه.

ثم قال لي عمر: هلاّ قَبِلْتَ الزادَ من سعد؟.

ـ فبماذا أجبته يا سيدي؟

ـ فقلت: لم أكن أعلم أنك تأذن لي به.

فقال عمر: إنّ أكملَ الرجالِ رأياً، مَنْ إذا لم يكن عنده عهدٌ من صاحبه، عَمِلَ بالحزم ولم يَنْكَلْ..

* * *

هذا ما حدّثنا به الفتى صادق أمين..

ألا ما أجمل أحلامَه، وما أروع أحاديثَه.

● ● ●

المصـادر والمراجـع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

٣ ـ السيرة النبوية لابن كثير.

٤ ـ فتح الباري، شرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني.

٥ ـ صفة الصفوة. لابن الجوزي.

٦ ـ الكامل في التاريخ. لابن الأثير.

٧ ـ حياة الصحابة. للكاندهلوي.

٨ ـ مجلة المسلمون الدمشقية. العددان: ٨ و ٩ لعام ١٩٥٨.

٩ ـ الأعلام. للزركلي.

١٠ ـ قادة النبيّ. لمحمود شيت خطاب.

● ● ●